في رسالة الأدب

بقلم علي بدور

الفن للفن، أم الفن للمجتمع؟ ان تقرير ذلك امر خطير، خطير بالنسبة الى الاعتقاد الذي نحمله تجـــاه نظرة الفن للفن أم الفن للمجتمع، بعد ان تسهم ثقافتنا واكتسابالتنا العامة في الفصل في هذا الموضوع ولو الى حين.

إن العصر الحديث يختلف عن العصور القديمة بشيء واحد، بهذه الآلة التي قسمت المجتمع الى صنفين: عمال ورأسماليين. فقد تطاحنت هاتان الطبقتان، فاستقرت الشيوعية في روسيا رسمياً، واعتدلت الرأسمالية الانكليزية الى شيء من الاشتراكية وبقيت الرأسمالية في امريكا وهي تزداد يوماً بعـد يوم، قـوة ناشئة عن الخوف من الخطر الأعظم. وظلت بقية الشعوب — وبخاصة شعوب الشرق الأوسط — كالأيتام على مائدة الكرام، لا تتقدم الى أي لون من ألوان الحكم المدعوم بنظام اقتصادي متميز، بل هي تجمع من هؤلاء وأولئك: مواطنين. وتأخذ من هذه الدولة وتلك: نظماً وأساليب حماية ووقاية ومطاردات. ولقد جر هذا التطاحن بين الطبقات العليا والدنيا، والمتوسطة والعليا، الى اعتبارات قد لا تكون تقليـــدية بالنسبة للقضاء عليها والتخلص من آثارها، ولم يعد بمستطاع الناس إلا التفكير الدائم في وسائل العيش وطرق تحقيقها، وفي اصوات الآلات وصراخ الأطفال الجياع وعويل الأمهات الباكيات على ابنائهن كلما فكر في ان يرسلوا الى الحروب لغايات ليست في مصلحة اكثرية الشعب في شيء. وفي خضم هذا البحران لنا ان نسأل الاديب: أأنت من انصار الفن ام من انصار المجتمع؟ والاجابة عن هذا السؤال قد توضح الفكرة المستعصية لو انعطفنا قليـلا الى العصور الادبية من حيث اتسامها بطابع الاجتماعية في الفن أو سواه. لاننا لا نستطيع ان نعتبر ان عصرنا هذا سيـــد العصور، وان اتجاهات مدارس الادب هي الاتجاهات المثـلى التي تحقق ما عجز عنه كل العباقرة الذين غمرتهم السنون.

ففي القرن السابع عشر كان الادب جندياً في خدمة الدولة بحيث يمكّن لاستبدادها في الارض. وكان شقـــاء الفرد في المجتمع أو سعادته فيه إنما تخضع لرغبة إلهية ليس من شأن الادب ان تناقش ويفصل فيها من قبل الحكومات او الهيئات التي تتصدى للخدمة الاجتماعية. ولكن القرن الثامن عشر وما لازمـه من تغير الاحوال الاقتصادية وزوال بعض الوسن الطويل، قـد جاء مغايراً لسلفه وبعد ان ثار الانكليز على آل ستوارت وزار الادباء الفرنسيون انكلترا ومنهم ڤولتير ومونتيسكيو فأعجبوا بالحرية التي يتمتع بها الشعب الانكليزي وكذلك راقهم مبدأ توزيع السلطات والفصل فيما بينها ضمن نظام دستوري سليم. وأخذ الادباء الفرنسيون، ڤولتير ومونتسكيو وروسو، يؤلفون الكتب ويحررون الناس ويفتحون عيونهم على واجبهم الذي يترتب عليهم تقديمه فداء للحرية والتحرر من الملكية المستبدة وسلطان الاشراف والاقطاع. وقد صبغ هذا العصر الادب والادباء بصبغة اجتماعية. وما ان انتصرت المبادىء الثورية وتقلبت على فرنسا حكومات الثورة حتى اطل القرن التاسع عشر وأطل معه استبداد نابليون ثم زواله وعودة الملكية حتى اتجه الادباء وجهة خاصة بعيدة عن المجتمع وتبلورت الحركة الابداعية بعد ان فتح الباب لها فيكتور هوغو في «تأملات متجول منفرد» وانقلب الادباء من الحديث عن المجتمع والكلام عليه، الى ادباء يهتمون بالعاطفة والاحساس ويمجدون الشعور الشخصي والآلام تمجيداً خارقاً. وكانت كل من قصة آلام ڤرتر لجوته وقصة رفائيل للامارتين كواسطة العقد من حيث اتسامها بالسمات المعبرة عن معنى الحركة الابداعية وغايتها.

نستطيع ان نقول ان الأدباء الذين مهدوا للثورة في فرنسا كانوا ادباء من جهة، وكتاباً اجتماعيين من جهـــة اخرى. ولكن انقراض هذه الطبقة، إبان المعركة وحـدوث الثورة ووقوع القلاقل والمجازر وموت الأبرياء والمجرمين بسلاح واحد ثم استبداد نابليون الطويل وعودة الملكية الى فرنسا بعـــد سقوطه، هذه العوامل كلها جعلت الناس ينشدون الهدوء بعد الصخب والعنف، وجعلت الأدباء في حالة يأس من كل امل في حكم الشعب للشعب وبالشعب، ثم صرفتهم الى تأملاتهـم الخاصة وأبعدتهم عن المجتمع.. وباتساع مجال الصحافة وبروز الفكرة الاشتراكية في انكلترا وفرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد ساعدت كل هذه الأسباب على فصل الأدب عن المجتمع من حيث غايته الاصلاحية. وأشاعت التخصص.. فالمفكر إما اديب وإما صاحب مذهب اجتماعي يسعى اليه عن طريق السياسة. وتعذر في ذلك العصر مع تبـلور الفكرة الاشتراكية وتبلور اتجاهاتها وانتشار الصحافة التي تعالج الوقائع اليومية وتعلق عليها، ان يكون الأديب ذا شخصيتين ادبية

او اجتماعية . كما تعذر تسمية الرجل المفكر بالأديب إذا كان يريد إصلاح المجتمع ورفع سويته، او تسميته بالكاتب الاجتماعي الأديب إذا كان يريد البحث في الأدب وفي المجتمع او إذا اراد ان يخضع ادبه لخدمة المجتمع .. ومن هنا ندرك تماماً بعد مقارنة فرنسا مثلاً في ذلك الزمان والحالة العامة فيها ، بحالتنا الحاضرة من حيث النهضة الاقتصادية وخصائصها ومن حيث الحالة الاجتماعية، والمذاهب الفكرية التي تتقاذفها وتتقاذفنا معاً.

ذلك ان مهمة الاديب في المجتمع تخضع لعوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية وتخضع لقدرة الشعب — شعب الاديب — على اكتسابه العبر والدروس من حركات الشعوب الاخرى في مضمار الحرية والحكم النظيف والاصلاح المستمر . لاننا لا نستطيع ان نفرض على امة تجوع جماهيرها ويشبع سادتها ، ويظلم احرارها بأيد ملوثة، وتمتهن فيها حرية الفكر أيما امتهان اقول لا نستطيع حيال ذلك ان نفرض على هذه الامة محبة الادب للأدب بنزعاته واعتباراته جميعاً . والاديب من خصله الحميدة ، تلك الروح المتأثرة بكل شيء ، فكيف نستطيع ان نصرف الاديب عن حالة المجتمع للعناية باخباره والدفاع عن حريته الخاصة في ان يحب الزهر والعيون الخضر او السود وينظم قصيدة طويلة في وصف ساق سيدة ساحرة وفي بلده المذلولة حكم فاسد يظلم ويبطش ويعلق علم الارهاب فوق كل ذروة شماء ؟ والاديب الحق اديب تجذبه الحرية التامة اليها فاذا كانت تامة : تغنى . وإذا كانت منقوصة : تشكى ودعا للثورة على من ينتقص منها بما يعادل استبداده وطغيانه . ومشكلة الحرية او قضية الحرية هي اولى واجبات الاديب ، تلك الحرية التي تنمو فيها نفس الاديب وموهبته . فهو يخاف الطغيان ويخشاه ، ولا يقعد دون محاربته بقلمه ولسانه ودمه إذا لزم الامر . إنه لا يستطيع الصداح في الاقفاص ، إنما يستطيع ان يحدث الاحرار عن نعمة الحياة وبسمة الحياة . وان يحدث المستعبدين عن الحرية والتحرر من الذل والقيود . وليس لك ان تلفت نظره الى ذلك فهو يشعر به شعوراً عفوياً ، لانك لا تستطيع ان تفرض على الاديب الحق نهجاً ترتضيه انت دون ان يرتضيه هو لنفسه اولاً وآخراً . إذ ان الابداع الفني إبداع شخصي اول كل شيء وآخر كل شيء . وهو مستقى من المحيط الذي يعيش فيه الاديب دون تقيد ما بحدود سياسية او جغرافية ، وموضوعه دوماً الانسانية جمعاء .. وقد يجد في بني قومه صورة مصغرة عن هذه الانسانية . وعليه ان يجد ذلك .

والاديب إذا وجه وقيد، فسد عقله وفسدت حريته وبذلك يفسد المولود الذي تريده سليماً من اي تشويه يعكر صفاء الملاحظة الخارجية وحرية الاعداد الداخلي في معمل النفس . ولا يوجد في الحقيقة فن للفن او فن للمجتمع ، ما دمنا نعتقد ان نفوس الادباء اكثر إحساساً بالظلم والعدل بالجمال والقبح من سائر الناس . وهذا الاحساس لا يمكن ان يكون من لون واحد . فكلما اختلفت الألوان كانت مائدة الحياة التي يعدها الادباء مجتمعين ، لكل الناس ، أشهى وأمتع . والشيء الرئيسي ان يترك باب التوجيه خالياً إلا من حارس الشعور الحر ، والعاطفة الحرة ، والفكر المتزن الوقور .

★

إن الأديب إنسان حساس، حر ، ذو كرامة واباء ، مهمته الاولى مخاطبة الأجيال ، الحاضرة والقادمة على موجة واحدة . موجة العاطفة الانسانية . وهو لا يستطيع مخاطبة ابناء اليوم فحسب . لأنه ان كان كذلك فقد اصبح كاتباً اجتماعياً يعالج موضوع ارتفاع سعر الخبز وتأثير ذلك على الطبقات الفقيرة . واذا حدث في بلد ما ازمة نقص في الغذاء فقد لا يحصل ذلك بعد مئة عام .وهو يستطيع ان يعالج ذلك في قصة اوقصيدة .. ولكنه اذا قال رأساً ان الحكومة كذا وكيت ، وان الافران قصرت وان الشرطة لم تراقب . فهو لم يعد اديباً شاء ام أبى . وما خلد الشوامخ في ادبنا العربي والآداب الاخرى إلا لانهم لم يعالجوا مواضيع يومية عادية طارئة معالجة سطحية غير فنية . واذا كان الاديب في امة تظلم وبين افراد احرار يذلون بينما الذين ينافقون ويكذبون ، يحكمون ويسوسون ، فقد يوجه احساسه الرهيف الى الناحية الاجتماعية لان اتجاهه هذا يحقق انقلاب حكم ونجاح شعب وتحقيق الحرية المفيدة لا المخربة لكافة المواطنين الشرفاء .

اما ان نفرض عليه طريقة بذره لعواطفه في ارضنا الخاصة ، او ان نفرض عليه اسلوب الكتاب الاجتماعيين في معالجتهم المشاكل الطارئة ، فان ذلك لمن القيود التي يجب ان نتورع عن اخضاع غيرنا لها .

ولنا دائماً وابداً ان نسأله عن لسانه المذيع وقلبه المعبر ، اسألوه عن الانسانية الاصيلة في نفسه ، واقرأوا كل ما يكتبه لكم ما دام يخاطب العاطفة قبل العقل ، والعاطفة قبل الارادة . والانسانية قبل الحضارة .

حلب — **علي بدور**